الفصل الثاني
ما هي أهم مصادر تفسير الصحابة؟

اعتمد الصحابة الكرام في تفسيرهم للقرآن الكريم علىٰ أربعة مصادر هي[1]:

أ ـ القرآن الكريم:

أجمع العلماء علىٰ أن أهم ما يفسّر القرآن هو القرآن نفسه ، من ذلك قول ابن تيمية رحمه الله: (فإن قال قائل: فما أحسن طريق للتفسير؟

والجواب: أن أصحّ الطرق في ذلك أن يفسّر القرآن بالقرآن ، فما أُجمل في مكان فإنه قد فُسِّر في موضع آخر ، وما اختصر في مكان فقد بُسط في موضع آخر)[2].

ومن ذلك قول الحافظ السيوطي رحمه الله: (قال العلماء: من أراد تفسير الكتاب العزيز طلبه أولاً من القرآن ، فما أُجمل منه في مكان فقد فُسّر في موضع آخر ، وما اختُصر في مكان فقط بُسط في موضع آخر منه)[3].

مثال ذلك ما ورد في القرآن من قصص ، فقصة موسىٰ عليه السلام

---

(١) التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي: ١/ ٤٠ ـ ٤٦.
(٢) مقدمة في أصول التفسير: ٩٣.
(٣) الإتقان: ٢/ ٢٢٥.

جاءت مجملة في سورة ، وجاءت مبسوطة في سورة أخرى ، وهكذا.

ومن تفسير القرآن بالقرآن: أن يُحمل المجمل علىٰ المبين ليفسّر به، مثال ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾[1] وتفسيرها في أواخر السورة ، وذلك بأنه العذاب الأدنىٰ المعجّل في الدنيا ، قال تعالى: ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾[2].

ومن تفسير القرآن بالقرآن: حمل المطلق علىٰ المقيّد ، والعام علىٰ الخاص ، مثالها: نفي الخلّة والشفاعة علىٰ جهة العموم ، قال تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾[3].

فقد استثنىٰ الله المتقين من نفي الخلّة ، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾[4].

واستثنىٰ ما أذن فيه من الشفاعة ، وذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ﴾[5].

ومن تفسير القرآن بالقرآن: حمل بعض القراءات علىٰ غيرها ، فبعض القراءات تختلف مع غيرها في اللفظ وتتفق في المعنى ، فقراءة ابن مسعود رضي الله عنه: (أو يكون لك بيت من ذهب) تفسّر لفظ الزخرف في القراءة المشهورة: ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾[6].

---

(١) غافر: ٢٨.
(٢) غافر: ٧٧.
(٣) البقرة: ٢٥٤.
(٤) الزخرف: ٦٧.
(٥) النجم: ٢٦.
(٦) الإسراء: ٩٣.

والدليل علىٰ أن القراءات تعتبر مرجعاً مهماً من مراجع تفسير القرآن بالقرآن:

ما رُوي عن مجاهد رحمه الله أنه قال: لو كنتُ قرأتُ قراءة ابن مسعود قبل أن أسأل ابن عباس ما احتجتُ أن أسأله عن كثير مما سألته عنه.

ب ـ النبي ﷺ:

كان الصحابة الكرام إذا أشكل عليهم آية من كتاب الله، فلم يفهموا المراد منها، رجعوا إلى رسول الله ﷺ، وذلك لأن الله تعالىٰ حدّد وظائف الرسول، ومنها بيان ما في القرآن من أحكام ونحو ذلك، قال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

وأخرج أبو داود في سننه أن النبي ﷺ قال:

«ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجلٌ شبعان علىٰ أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلّوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه»[2].

ومن الأمثلة التي تدلّ علىٰ مدىٰ اعتماد الصحابة علىٰ أقوال النبي ﷺ في تفسير القرآن ما يلي:

قال رسول الله ﷺ لأبيّ بن كعب: «ألا أعلّمك سورة ما أنزلت في التوراة ولا في الإنجيل، ولا في الزبور، ولا في الفرقان مثلها؟».

فقلت: بلىٰ.

قال: «إني لأرجو ألا تخرج من ذلك الباب حتىٰ تعلمها».

فقام رسول الله ﷺ وقمت معه، فجعل يحدثني ويدي في يده أتباطأ

---

(١) النحل: ٤٤.

(٢) للتوسّع يراجع: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي: ١/ ٣٧.

كراهية أن يخرج قبل أن يخبرني بها ، فلما دنوت من الباب ، قلت: يا رسول الله! السورة التي وعدتني.

قال: «كيف تقرأ إذا قمت إلىٰ الصلاة؟».

فقرأتُ فاتحة الكتاب.

فقال: «هي ، هي ، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أُعطيت»[1].

مثال آخر: عندما أنزل الله تعالى قوله ـ في سياق قصة نبي الله موسىٰ عليه السلام مع قومه ـ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[2].

فسُئل النبي ﷺ عن ذلك فقال: «إن بني إسرائيل لو أخذوا أدنىٰ بقرة لأجزأتهم ، أو لأجزأت عنهم»[3].

مثال آخر:

في قوله تعالىٰ: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾[4].

روىٰ أبو سعيد الخدري رضي الله عنه قال: إن رجلاً سأل النبي ﷺ عن معنى هذه الآية.

فقال صلوات الله عليه: «كل حرف من القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة»[5].

مثال آخر:

---

(١) المستدرك علىٰ الصحيحين ، للحاكم النيسابوري: ٢/ ٢٥٨.
(٢) البقرة: ٦٧.
(٣) مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي: ٦/ ٣١٤.
(٤) البقرة: ٢٣٨.
(٥) مجمع الزوائد: ٦/ ٣٢٠.

في قوله تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[1].

روىٰ أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يُدعىٰ نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فتشهدون أنه قد بلَّغ، ويكون الرسول عليكم شهيداً، فذلك قوله تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[2].

إلىٰ ما هنالك من تفسير نبوي لآيات القرآن الكريم..[3].

ج ـ الاجتهاد وقوة الاستنباط:

كان الصحابة الكرام إذا لم يجدوا التفسير في القرآن، وفي السنة النبوية، كانوا يجتهدون، لكن شريطة أن يملك الصحابي أدوات الاجتهاد، وهي:

أولاً: معرفة أوضاع اللغة وأسرارها.

ثانياً: معرفة عادات العرب.

ثالثاً: معرفة أحوال اليهود والنصارى في جزيرة العرب وقت نزول القرآن.

رابعاً: قوة الفهم وسعة الإدراك.

(فمعرفة أسباب النزول، وما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات، تُعين علىٰ فهم كثيرٍ من الآيات القرآنية، ولهذا قال الواحدي: (لا يمكن

---

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) صحيح البخاري: ٣/ ١٢٠.

(٣) للتوسع يراجع: تفسير القرآن الكريم في العهد النبوي، للمؤلف: ١٦٧ ـ ١٨٩

معرفة تفسير الآية دون الوقوف علىٰ قصتها وبيان نزولها).

وقال ابن دقيق العيد: (بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن).

وقال ابن تيمية: (معرفة سبب النزول يُعين علىٰ فهم الآية، فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبّب)[1].

ومن الأدلة القوية علىٰ تفاوت الصحابة في معرفتهم بأدوات الاجتهاد ما يلي:

استعمل عمر رضي الله عنه قدامة بن مظعون علىٰ البحرين، فقدم الجارود علىٰ عمر فقال: إن قدامة شرب فسكر، فقال عمر: من يشهد علىٰ ما تقول؟

قال الجارود: أبو هريرة يشهد علىٰ ما أقول.

فقال عمر: يا قدامة إني جالدك!

قال: والله لو شربت كما يقول ما كان لك أن تجلدني.

قال عمر: ولمَ؟

قال: لأن الله يقول: ﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحْسَنُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2].

فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم اتقوا وآمنوا، ثم اتقوا وأحسنوا، شهدتُ مع رسول الله ﷺ بدراً وأُحداً والخندق والمشاهد.

فقال عمر رضي الله عنه: ألا تردون عليه قوله؟

فقال ابن عباس رضي الله عنه: إن هذه الآيات أنزلت عذراً للماضين

---

(١) منهج الفرقان: ١/ ٣٦.

(٢) المائدة: ٩٣.

وحجّة علىٰ الباقين ، لأن الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[1].

فقال عمر: صدقت.

ومثله ما أخرج البخاري من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان عمر رضي الله عنه يدخلني مع أشياخ بدر فكأن بعضهم وَجَدَ في نفسه وقال: لمَ يدخل هذا معنا وإن لنا أبناء مثله؟

فقال عمر: إنه من أعلمكم ، فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم ، فما رأيت أنه دعاني فيهم إلا ليُريهم ، فقال: ما تقولون في قوله تعالىٰ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ . . .﴾[2] ، فقال بعضهم وبعضهم الآخر لم يقل شيئاً.

فقال لي: أكذلك تقول يابن عباس؟

فقلت: لا.

فقال: ما تقول؟

قلت: هو أَجَلُ رسول الله ﷺ له ، قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ فذلك علامة أجلك: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾[3].

فقال عمر رضي الله عنه: لا أعلم منها إلا ما تقول. . .[4].

د ـ أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ:

(إن القرآن الكريم يتفق مع التوراة في بعض المسائل ، وبالأخص في قصص الأنبياء ، وما يتعلق بالأمم الغابرة ، وكذلك يشتمل القرآن

---

(١) المائدة: ٩٠.
(٢) النصر: ١.
(٣) النصر: ٥.
(٤) فتح الباري: ٨/٥١٩.

علىٰ مواضع وردت في الإنجيل ، كقصة ميلاد عيسىٰ ابن مريم ، ومعجزاته عليه السلام.

غير أن القرآن الكريم اتخذ منهجاً يخالف منهج التوراة والإنجيل ، فلم يتعرّض لتفاصيل جزئيات المسائل ، ولم يستوف القصة من جميع نواحيها ، بل اقتصر من ذلك علىٰ موضع العبرة فقط.

ولما كانت العقول دائماً تميل إلىٰ الاستيفاء والاستقصاء ، جعل بعض الصحابة رضي الله عنهم أجمعين يرجعون في استيفاء هذه القصص التي لم يتعرّض لها القرآن من جميع نواحيها إلىٰ من دخل في دينهم من أهل الكتاب ، كعبد الله بن سلام ، وكعب الأحبار ، وغيرهم من علماء اليهود والنصارى.

وهذا بالضرورة كان بالنسبة إلىٰ ما ليس عندهم فيه شيء عن رسول الله ﷺ ، لأنه لو ثبت شيء في ذلك ما كانوا يعدلون عنه إلىٰ غيره مهما كان المأخوذ عنه).

* * *